ما أتمناه من تخطيط عمراني لمدينة النجف

البروفيسور محمّد مكية*

إن الحديث عن التخطيط العمراني يعني الحديث عن المتغيرات في الزمان والمكان. فالعمارة تشير إلى واقع العلاقة بين المتغير والثابت، والأول محدد بالثاني وهذا ما نسميّه بالالتزامات. وتلخص الثوابت بالتالي:

أولاً: انتماء المدينة إلى المسرح الجغرافي، ذي الخصائص المتميزة مناخياً وبيئياً.

ثانياً: العمق التاريخي، الّذي يهب المدينة طابعها الزمني، المتولد باستمرار.

ثالثاً: القيم الإسلامية، بالنسبة للمدينة الإسلامية.

وفي العراق عامة هناك تخلف في تخطيط المدن، ومدينة النجف كمدينة عراقية عانت من جراء ذلك، وشملها ما أسمّيه بالسرطان العمراني، الّذي نما عشوائياً على حساب هويتها العمرانية والحضارية، وهي مدينة الإمام علي بن أبي طالب، وبالتالي فهي مدينة العلم والإسلام.

وبشكل عام، يحتاج مخططو المدن إلى إلمام في العلم البلداني، والجغرافيا وبرأيي أن الجغرافيا أهم من التاريخ بالنسبة لفن العمارة والعمران، فهي تؤكد المقياس الإنساني في البناء. وفي مجال التعرف على التراث وحضارة الآخرين، من المفروض أن يكون الانطلاق من معرفة الذات، حتى يتم التعامل مع الآخرين والقدرة على المنافسة، ومن هذا التعامل والتفاعل يتحقّق التنوع في الوحدة، فالانعزالية تقود إلى التخلّف والتقوقع على الذات.

---

* من رواد المعماريين العراقيين ورئيس الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة ـ الملغـاة ـ، ومؤسـس ديـوان الكوفة في لندن.

عن: النجف الاشرف، إسهامات في الحضارة الإنسانية ٢/ ٤٦٤ ـ ٤٦٩.

وما يخص مدينة النجف، كان هدم السور، الّذي أحاط بالمدينة قروناً عديدة وأصبح معلماً من معالمها الحضارية والتاريخية، خطوة متخلفة، ذلك أنّه ضمّ المدينة بداخله وكأنها متحف كامل، بكل ما فيها من تفاصيل. ومع علمي، أن النجف كانت تعاني من الازدحام، وأن كثافتها السكانية بتصاعد، وأنها بحاجة إلى رئة تتنفس بها، ولكن هدم السور لم يحل المشكلة، وكان بالإمكان تحقيق تلك الرئة مع الحفاظ على السور. وإن كان لا بد من ذلك، فمن الأجدر أن يحل سور من شجر النخيل محل ذلك السور التاريخي، وهذه الفرصة ما زالت سانحة، وممكنة التحقيق، والنخلة هي الشجرة المباركة التي أكرم الله بها الإنسان في ذلك المكان الخصيب.

إن التوسع العمراني ينبغي أن يكون توسعاً حياً نابعاً من عوامل النمو الطبيعية، وليس بقرارات مرتجلة، أكثر ما تتمكنه الهدم والبناء العشوائي. فمن مشاكل المدن، والنجف أحدها، طبيعة التغيرات التي حصلت في تكنولوجيا النقل فالسيارة التي دخلت المدينة العراقية القديمة كانت نعمة وبلوى في آن واحد. لذا كانت الحاجة ماسة إلى وضع خطط علمية متكاملة لمواجهة الحركة الآلية. ولعل ذلك سهل نظرياً، عند الحديث عن الخطة، لكن الصعوبة عند مواجهة الواقع العملي، وما أعتقده أن ذلك يحتاج إلى خطط طويلة المدى من عقد إلى عقدين؛ لأن الحركة الآلية في تطور مستمر، ولا بد من مواجهتها بتشريعات مناسبة، بعيدة عن التصورات المثالية والحلول الارتجالية أو بعيدة المنال.

أما مدينة النجف فالمفروض أن يتحقق فيها التخطيط انطلاقاً من قدسيتها، ومكانتها الجغرافية، فهي بوابة العراق إلى الجزيرة العربية، حيث المقدسات في الحجاز، مكة المكرمة والمدينة المنورة، وبهذا المعنى تكون النجف بوجود ضريح الإمام علي بن أبي طالب امتداداً لتلك المقدسات، مع استلهام قول الرسول الكريم: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها))، وما يمثله هذا الحديث من وشائج روحية بين الحجاز والعراق عبر مدينة النجف.

أما المعلم الحضاري الآخر في النجف، بعد ضريح الإمام علي وسورها التاريخي فهو بحر النجف، وما له من علاقة بنشوء المدينة وتطورها. فلهذا البحر دلالة بيئية هامة فهو منبسط مائي على طرف الصحراء حيث تنتهي النجف إلى الجزيرة العربية. وبعلاقة النجف بالبحر يتحقق تخطيط آخر للمدينة، للأسف لم يؤخذ بنظر الاعتبار عند تصميم

المدينة. وبخصوص العلاقة بين النجف والكوفة أن يؤخذ بنظر الاعتبار الحفاظ على قصبة النجف، وبعدها المكان النسبي عن الكوفة، فكلا المدينتين لها خصوصيتها الحضارية وأصولها التاريخية المختلفة رغم القرب المكاني، وهذا ما هدف له مشروع جامعة الكوفة، في أن يحقّق عازلاً بين المدينتين.

إنّ التراث الصحراوي، والنجف معنية به، يشير إلى ما يُعرف بالواحات الخضراء وهي بمثابة نقاط جذب استيطانية للإنسان، ومن هذا المنطق، أقترح الاستفادة من فكرة تحقيق الواحة في التطور العمراني للنجف، أي أن تبنى في الواحات عمائر مرتفعة، حتى يتحقق التناسب بين الأفقية والعمودية، ضمن طراز عمراني يحافظ على روح البيئة النجفية القديمة من جهة ومن جهة أخرى يحقق الحداثة والتجديد. أما الفضاء بين تلك العمائر فأقترح أن يملأ بأشجار النخيل. ومن وحي الواحات لا بدّ أن يظهر اهتمام كبير بالآبار الارتوازية، وهي النواة الأولى في تأسيس الواحة وسط الصحراء. ومن المعلوم أن الواحة ذات منشأ طبيعي في المناطق الصحراوية، تشير إلى التوازن البيئي في العمق الصحراوي القاحل، نماذج تلك الواحات موجودة في الجزائر وتونس.

ومن مهام التخطيط الأخرى في النجف ضرورة صيانة العناصر المعمارية التقليدية في المدينة. ولكن للأسف الشديد حصلت في هذه المدينة الدولية تجاوزات كبيرة، مثل قلع القاشاني ووضع المرمر الباكستاني محله، ويعدّ هذا العمل إهانة صريحة للمدينة ومعالمها التاريخية، وهذا لا يقل إساءة من وضع الأضواء والنيونات الكهربائية وهي تعلو أقواس أبواب ومداخل الحضرة العلوية كما لا يقل جرمية من وضع أجهزة التبريد والتكييف بصورة مشوهة للمعالم العمرانية المميزة للعتبات المقدسة. ولعل أهم ما يمكن الإشارة إليه إضافة إلى ما ورد في مجال التخطيط العمراني للمدينة هو الاستفادة من فكرة الأبنية تحت الأرض، التي تساعد كثيراً في مواجهة حرارة القيض الصحراوي، وربما لا يخلو بيت نجفي قديم من السرداب. ويمكن معالجة الحركة الآلية في نقلها إلى الأنفاق والممرات تحت الأرض، وهذا ما يضمن الحفاظ على حقوق الإنسان في المشي بحرية على سطح الأرض. وفيما يخص الحضرة العلوية، فقد اقترحتُ سابقاً أن يكون هناك فضاء حول الصحن الحيدري خاص بالمشاة، لكن ما تحقق هو شارع للسيارات، وبوجود هذا الشارع شوهت المنطقة المحيطة بالصحن، فقد أقاموا فيها أعمدة كونكريتية وأقواس مصطنعة زائفة. وهو أمر مناقض لقدسية المكان وخصائصه العمرانية والحضارية.

ومن المقترحات التي تصون المدينة وخلفيتها الحضارية أن تكون لبلدية مدينة النجف هيمنة وصلاحيات بعيدة عن الخطط المركزية، يمكنها حماية استعمالات الأرض من العشوائية والفوضى، وأن يكون هناك تفاهم وتعاون بين هذه الدائرة وبين الأهالي، وسبق أن اقترحتُ تأسيس مصرف لهذا الغرض، يشترك فيه الأهالي مع البلدية لتطوير المدينة، وإلى جانب ذلك أن تشكل جمعية لحماية العتبات المقدسة، قُدم المقترح للجهات المعنية، ولكن ليس هناك استجابة تذكر، لا من قبل الدولة ولا من قبل المراجع الدينية، لقد أكدت الأحداث ضرورة مثل هذه الجمعية.

إنّ أي تخطيط عمراني في النجف من المفروض أن ينبع من خصوصيتها وقدسيتها ودورها الحضاري وأن لا يفرض التخطيط من قبل مهندس أو معماري أو مخطط، فالمدينة هي التي تخلق المعماري والمخطط وليس العكس، كما أرجو أن يتحقق ذلك بدراسة متقدمة للبيئة والتراث، وأن تتحقق من خلال التعامل الحي مع السماء وتفاصيلها من شمس وقمر ونجوم. ففي عمارة النجف هناك واجهة واحدة توحيدية متصلة مع المطلق، وهي المواجهة السماوية.

وإضافة إلى ما ذكرنا أود الإشارة إلى جملة توصيات حول مجمل التخطيط العمراني لمدينة النجف المقدسة:

أولاً: ينبغي أن يتحقق تطور المدينة منطلقاً من تطور المنطقة ككل، وعلى المستوى الوطني والمحلي والإقليمي.

ثانياً: ضرورة الاهتمام بالتخطيط الاقتصادي للمدينة؛ لأن التطور العمراني مرتبط بالتطور الاقتصادي إلى أبعد الحدود.

ثالثاً: تطوير وتنظيم الزيارات للمدينة المقدسة على الصعيد الداخلي والخارجي، والتفكير بالأساليب العملية الفعالة.

رابعاً: الاهتمام بمقبرة النجف، وادي السلام، باعتبارها أحد أهم معالم المدينة العمرانية والمعمارية والدينية.

خامساً: العمل على تطوير امتداد المدينة بشرايينها وطرقها إلى كربلاء والكوفة ومدن الفرات الأوسط كافة.

سادساً: نمو المدينة ينبغي أن يكون منتسباً إليها، فهي مدينة علمية ودينية، وهذا

يحتاج إلى الاهتمام بالمدارس الدينية والجوامع، وأماكن إقامة زوار الحضرة العلوية، ومقبرة وادي السلام.

البروفيسور محمد مكية

سابعاً: ومن وجهة نظري أنّ النجف مثل مدينة كامبردج العلمية والتاريخية، فهي محفوظة ومحمية لا يستطيع أحد أن يغير فيها ما يُخالف أصالتها العلمية والحضارية، كتغيير اسم منطقة من مناطقها أو شارع من شوارعها، فما زالت تلك المدينة تحتفظ بالطريق الّذي كان نيوتن يسير عليه كما هو. فالمطلوب أن تحتفظ النجف بآثارها وتراثها الحضاري، الّذي يحكي قصة وجودها وقصص علمائها وأدبائها، من الّذين عاشوا ودرسوا ثمّ ماتوا ودفنوا في أرضها.

أتخيل المدينة، وكأنها أمامي وأنا بواديها، وهي في وضع أتمناه لها، في أن يدخلها شريان أخضر، وهو شارعها العام المحيط بها، وعلى جانبيه أشجار النخيل. أتخيل هذا الشارع الأخضر خالياً من العشوائية، منازل ودكاكين، وعندها يتحقق الانتقال الفعلي من الصحراء القاحلة إلى الخضرة. وأن ينتهي الشارع العام المخضر الجوانب إلى بوابة المدينة، التي ينبغي أن تصمم بصورة تبعث الخشوع والهيبة، وبعدها يدخل الزائر مدينة الإمام علي بن أبي طالب ماراً بأزقتها التقليدية وأسواقها القديمة ليصل إلى الحضرة الحيدرية المقدسة.

وبهذا الانتقال المكاني النوعي من الصحراء إلى الشارع الأخضر، فالبوابة فالأزقة والدروب القديمة التي تحكي قصة وجود المدينة، وما جرى عليها في الأيام الخوالي، فالمرقد العلوي، وبكل ما تحمله هذه المرحلة من تداخل وتكامل حجمي، أرى صورة النجف المستقبلية.

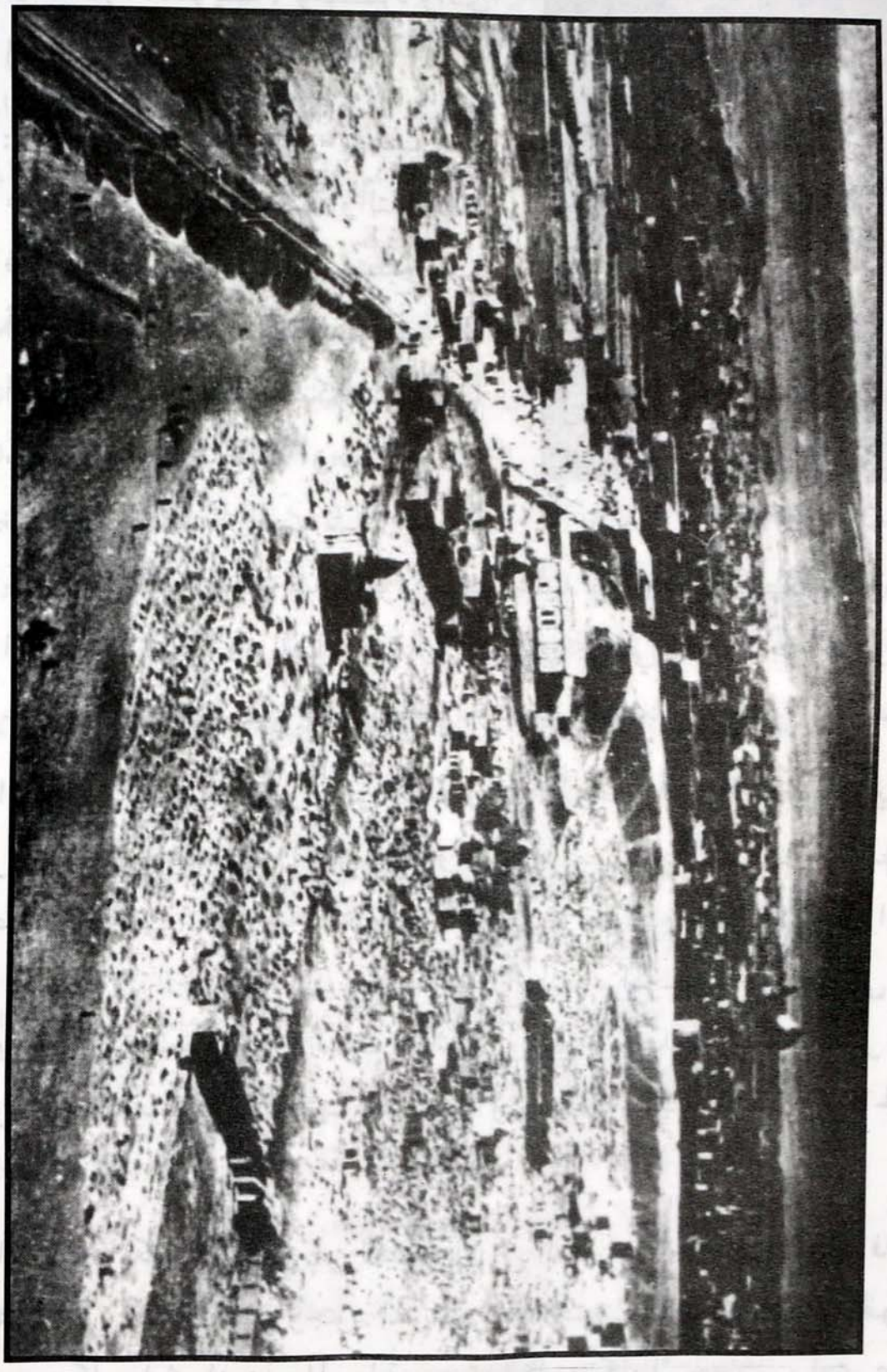

النجف - صورة جوية